

التجليد

أكبر الظن أن جلود المخطوطات في إيران كانت تصنع حتى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) على الطريقة المصرية الاسلامية؛ والمعروف أن صناعة التجليد ازدهرت عند الأقباط في مصر قبل الفتح الاسلامى؛ ثم تطوّرت على يد المسلمين تطوّرا بسيطا في القرون الأولى بعد الهجرة حتى اتخذت شكلا إسلاميا ظاهرا منذ القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى) .

وتمتاز جلود الكتب الاسلامية عامة بأن كعوبها مستوية وغير بارزة؛ كما تمتاز بأنها تساوى ورق الكتاب في الحجم، وبأن جانبها الأيسر ذو امتداد يعرف باسم «اللسان» . ولم يستخدم المسلمون في تجليد الكتب إلا الخشب والجلد ثم الورق المضغوط والمدهون باللاكيه؛ وذلك لأن تجنب الترف والبذخ صرفهم عن استخدام الذهب والمعادن النفيسة في التجليد كما فعل أهل بيزنطة .

وقد نقلت أساليب التجليد القبطية التي ورثها المسلمون الى سائر أنحاء الشرق الأدنى والأوسط على يد النساطرة؛ فاقتبسها المانويون مثلا في بلاد التركستان الشرقية، كما تشهد بذلك جلود الكتب التي عثر عليها فون لوكوك مدير البعثة الأثرية الألمانية التي نقبت عن الآثار في «طرفان» من أعمال أواسط آسيا . وهي جلود مخطوطات مانوية؛ ويمكن نسبتها الى ما بين القرنين السادس والتاسع بعد الميلاد؛ ولا تختلف كثيرا في أساليب الصناعة

والزخرفة عن جلود الكتب القبطية^(١) . وليس بمستغرب أن تكون هناك علاقة بين الأقباط وأتباع المذهب المانوي ، فقد كشفت في مصر حديثا كتب مانوية مكتوبة باللغة القبطية .

وكذلك امتد نفوذ الأساليب القبطية الإسلامية في التجليد الى إيران . فكانت الجلود الأولى من الخشب المغطى بالجلد والمزين بالرسوم الهندسية . ثم استخدم الورق عوضا عن الخشب واستخدمت الزخارف المكونة من الرسوم والخطوط المتشابكة .

بل إن ذلك النفوذ امتد أيضا الى بلاد منغوليا في أواسط آسيا حيث عثر في أطلال مدينة كانت عامرة في العصور الوسطى على جلد كتاب ينسب الى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، وعليه زخارف من إطار ذى فروع نباتية عربية ، وفي وسطه جامعة أو صرة من جدائل ، وفي كل من الأركان الأربعة ربع جامعة .

ومهما يكن من الأمر فقد استخدم الإيرانيون في التجليد طريقة الدق أى الضغط ، كما استخدموا أيضا التخريم والدهان والتليس بالقماش . وكانوا أحيانا يقطعون الجلد بالرسم المخصوص الذى يريدونه ثم يلصقونه على القماش الملون ويذهبون الخطوط والرسوم بعد ذلك . واستخدموا في بعض الأحيان طريقة قوامها طبقتان من الجلد تلصق إحداها فوق الأخرى بعد أن تحرق الموضوعات الزخرفية المطلوبة في الطبقة العليا .

(١) راجع A. von Le Coq : Die Buddhistische Spätantike in Mittelasiien II (Berlin 1923) ص ١٧ و ٤٠ ، لوحة ٤

وقد عرف المسلمون التجليد في إيران وغيرها من الأقاليم الإسلامية في القرون الأولى بعد الهجرة . وذ كرا بن النديم في كتابه الفهرست أسماء بعض المجلدين ، كابن أبي الحريش الذي كان يجلد في خزانة الحكمة للامون ، ولكن أقدم ما نعرفه من جلود الكتب الإيرانية يرجع الى نهاية القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) والى القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي) . أما الذي يرجع الى القرن السابع فجاء من جلد كتاب عثر عليه الأستاذ بوب A. U. Pope بالمسجد الجامع في ناين ، وفي وسطه زخرفة من أشكال هندسية صليبية الشكل . بينما وصلنا من القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي) عدد قليل من الجلود ، محفوظة بمتحف الفنون الإسلامية والتركية في استانبول^(١) ، وأعظمها شأنًا جلد مصحف للسلطان الجايتو سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) وجلد مخطوط من تبريز وتاريخه سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٤ م) . وكل هذه الجلود ذات زخارف هندسية ، وجامات ، وإطار من الخطوط المتشابكة .

وقد قيل إن تيمورلنك في نهاية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) استقدم الى بلاطه مهرة المجلدين في مصر والشام^(٢) ، وهكذا نرى أن الزعامة في هذه الصناعة ظلت الى عصر تيمور معقودة لهذين البلدين .

على أن صناعة التجليد الإيرانية لم تبلغ أوج عظمتها ، ولم تصبح إيرانية حقا إلا في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) على يد المجلدين من مدرسة

(١) انظر Sakisian: La reliure dans la Perse occidentale sous les Mongols au XIV^e et au début du XV^e siècle Ars Islamica في مجلة ج ١ (١٩٣٤) ص ٨٠ — ٩١

(٢) انظر Martin: A History of Oriental Carpets ص ٢٩٩ Sarre :

Islamische Bucheinbände ص ١٤

هرارة . ولا غرو فقد عرفنا أن هذا العصر شهد في إيران إنتاج أنفجر المخطوطات ذات الخط الجميل والزخارف المذهبة والصور البديعة والجلود الثمينة . وذلك بفضل النهضة الفنية في البلاد وبفضل المجامع التي أنشأها لفنون الكتاب شاه رخ وبايسنقر، وجمعا فيها الفنانين من كل أطراف المملكة^(١) . ولم تكن صناعة التجليد وقفا على هرة؛ فقد حازت فيها قصب السبق؛ ولكن كانت هناك مراكز أخرى في سمرقند ومرو ومشهد وبلخ ونيسابور وشيراز وتبريز .

وفي الحق أن صنّاع جلود الكتب في إيران أصابوا في القرن التاسع الهجري أبعد حدود التوفيق في الخروج على الأساليب الهندسية القديمة في الزخرفة؛ وابتدعوا تركيب الزخارف من المناظر الطبيعية ذات الحيوانات والطيور الحقيقية والخرافية . ووصلوا إلى الإتقان في دقة الرسم وأسلوب الصناعة وسلامة النسب .

وقد استطاع الفنانون الوصول إلى إتقان الزخارف المذكورة بعد أن تخلّوا عن طريقة الضغط أو الدق بالآلة البسيطة التي كانت تنتج الرسوم الهندسية ورسوم الفروع النباتية، فاستخدموا القوالب المعدنية المستقلة التي كانوا يضغطون فيها الجلد بقوة فتظهر فيه التّؤات الشديدة البروز على شكل العناصر الزخرفية النباتية والحيوانية، بل والصور الآدمية أيضا .

(١) راجع مادة التيموريين للأستاذ بوفات Bouvat في دائرة المعارف الإسلامية؛ والمقال الذي كتبه هذا الأستاذ في العدد ٢٠٨ (١٩٢٦) من المجلة الآسيوية Journal Asiatique بعنوان Essai sur la civilisation Timouride ص ١٩٣ — ٢٩٩ .

وفي القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) كان المصوّرون عوناً كبيراً لصناع الجلود في رسم الحيوانات والأشجار والنباتات والأشخاص ، في دقة ورشاقة يبدو تأثير الشرق الأقصى في أساليبها الفنية ، فكانت الجلود تبدو في بروزها كأنها من المسكوكات ؛ كما أنتج الفنانون في القرن العاشر الهجري بعض الجلود الفاخرة المخزّمة من الورق والجلد المقطوع بدقة كأنها الخيوط ؛ وكانت هذه الجلود ذات طبقات متعددة تختلف كل واحدة في لونها عن الأخرى وتوضع بعضها فوق بعض . وكانوا يعنون بباطن الجلود وألصقتها عنايتهم بالجزء الخارجى منها ؛ ولكنهم فقدوا في هذا القرن بعض ما كان لهم في القرن السابق من المهارة وحسن الذوق في هذا الميدان .

وكانت معظم جلود الكتب في هذا العصر من جلد الماعز وتشبه في زخارفها السجاجيد في كثير من الأحيان فكثيراً ما نرى في وسطها جامة أو صرة بيضاوية وفي الأركان الأربعة أجزاء من جامات ؛ وفي الجامة وأرباع الجامات رسوم نباتية أو حيوانية أو رسوم سحب صينية .

واستخدم المجلدون الإيرانيون في مدرسة هراة طريقة الزخرفة برسوم اللآليكة ؛ وذلك منذ منتصف القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) . وأقدم ما نعرفه من هذه الجلود يرجع إلى سنة ٩٣١ هـ (١٥٢٥ م) وامتاز بعضها بجمال الألوان ، التي غلب عليها الأسود والذهبي ؛ ولكن صناعتها لم تلبث أن تأخرت في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) ثم تأثرت بالأساليب الفنية الأوروبية في عصر فتح علي شاه (١٢١٢ - ١٢٥٠ هـ أي ١٧٩٧ - ١٨٣٤ م) . على أن تلك الجلود كانت ميداناً لفن التصوير ولم يكن للمجلدين فيها شأن عظيم .



ويجب علينا ألا ننسى ما كان لمدرسة هراة من تأثير على المراكز الفنية الأخرى في إيران ؛ فقد مر بنا أن انتقال الفنانين من بلد الى بلد في العالم الاسلامي كان أمرا شائعا . فضلا عن أن المجمع الذي أنشئ لفنون الكتاب في هراة انحل عندما وقعت هذه المدينة في يد الشيبانيين سنة ٩١٣ هـ (١٥٠٧ م) فتفرق الفنانون في المراكز الفنية الجديدة في إيران وفي بلاط الهنود المغول والأتراك العثمانيين .

كما أن علينا أن نذكر دائما أن الجلود الثمينة التي يمكننا اعتبارها آيات في الفن ودقة الصناعة لم يكن المقصود بها أن تكون غلافا لحفظ الكتاب لحسب ؛ ولكنها كانت جزءا ثمينا منه ؛ فكان الكتاب يوضع بحلده في حافظة من الديباج أو القطيفة .

وقد كان للأساليب الاسلامية الايرانية في التجليد تأثير على هذه الصناعة في مدينة البندقية . والمعروف أن الأوربيين في العصور الوسطى كانوا يزخرفون جلود الكتب بطبع الرسوم عليها بواسطة المكابس المعدنية وكانت الزخارف التي تنتجها هذه الطريقة بارزة فقط . ثم أدخل الفنانون المسلمون الذين استقروا في البندقية الطريقة الشرقية في تزيين الرسوم المطبوعة بملء أجزائها الغائرة بصبغات ذهبية .

وقد اشتغل كثير من المجلدين الايرانيين في تركيا فانتجوا في القرنين التاسع والعاشر بعد الهجرة جلودا ثمينة لا تكاد تختلف عما كان ينتجه زملاؤهم

في إيران . ولا شك في أن هذه الجلود الايرانية والتركية في القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) كانت أبدع من جلود الكتب المصنوعة في أى بلد أوروبى في ذلك العصر .



على أن فنون الكتاب في إيران بدأت في الاضمحلال منذ نهاية القرن العاشر الهجرى (السادس عشر) . وبدأ الفنانون يحرصون على الانتاج السريع الذى لا يمكن أن يسفر عن النتائج الطيبة التى عرفناها في المخطوطات الجميلة في القرن التاسع (الخامس عشر الميلادى) . ولا ريب في أن النهضة الحديثة في إيران ستفلح في أن تعيد لتلك الفنون مجدها الأول .